الإهـــداء

الى روحى امى وابى فى اكرم

جوار وفاء وعرفانا ..

محمود

مقدمة

من الحقائق المسلم بها فى دراسة تاريخ العصور الوسطى ، أن الانتصارات الكبيرة التى أحرزها الصليبيون فى الشرق الأدنى ، حينما وصلوا اليه أول مرة أواخر القرن الحادى عشر للميلاد ، لم يكن مردها قوة خارقة ، بقدر ما كان ضعف القوى الاسلامية فى المنطقة (١) · وهناك أسباب عديدة أدت الى ضعف المسلمين ووهنهم فى منطقة الشرق الأدنى فى ذلك الدور · فالسلاجقة وهم أصحاب النفوذ فى بلاد الشام عندئذ ، كانوا منقسمين على أنفسهم ، يتقاتلون فيما بينهم من أجل الظفر بعرش السلطنة ، وشغلتهم أهواؤهم الشخصية عن ادراك أبعاد الخطر الأجنبى ، مما سهل للصليبيين احراز النصر فى حروبهم الأولى (٢) ·

والواقع ان السلاجقة بعد وفاة السلطان ملك شاه عام ١٠٩٢ م أصابهم التداعى والانهيار ، بسبب الحرب الداخلية التى نشبت بين أبنائه · ويشير البعض الى أن الحروب الصليبية لو تقدمت عن موعدها عشر سنوات ، لما تحقق لها ما أصابته من نجاح ، لأنها ربما اصطدمت عندئذ بامبراطورية عربية تركية موحدة تحت زعامة ملك شاه (٣) ·

وكان تفاقم الخلاف بين السنة والشيعة ايضا ، من الأسباب الرئيسية لضعف المسلمين فى ذلك الدور ، مما أدى الى ايجاد الفرقة بين المسلمين بعضهم وبعض ، وازدادت حدة الخلاف بين الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة ، ومن الطبيعى أن ينعكس الخلاف بالشام فى صورة صدام عنيف بين الخلافتين ، لأن بلاد الشام بحكم موقعها الجغرافى تعتبر حلقة الوصل بين مصر والعراق ؛ وقد واكب ضعف الخلافة

---

(١) سعيد عاشور : شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ١٥ ·
(٢) عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ١٠٢ ·
(٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٢٠ ،
الباز العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، المقدمة ·

العباسية فى بغداد انحسار نفوذها فى كثير من البلاد ومن جملتها الشام (١)٠ فانتهز الفاطميون الفرصة ومدوا نفوذهم الى الشام ، وظلـــوا حتى مجىء الصليبيين يضـــعون أيديهم على الأجزاء الجنوبية والساحليـــة من بلاد الشام (٢) ٠

ولم يقف الأمر على التنافس الشديد بين السنة والشيعة ، بل أن الأمراء المحليين استغلوا ضعف السلطة المركزية فى كل من بغداد والقاهرة ، وأسسوا امارات لهم فى أنحاء مختلفة من الشام ، ومكنوا لانفسهم فيها ، مثل بنوطى فى ما وراء نهر الأردن ، وبنو عمار فى طرابلس ، وبنو الجراح فى غزة والرملة، وبنو منقذ فى شيراز ، وبنو مرداس فى حلب ، وابن ملاعب فى حمص ، وابن أبى عقيل فى صور (٣) ٠

والحركة الصليبية دفعتها بواعث حقيقية ، انبعثت من صميم المجتمع الأوربى الغربى ، والقول بان الاباطرة البيزنطيين بسبب تعرضهم لضغط الأتراك السلاجقة ، استنجدوا بالبابوية ، أمر لم يكن ليلقى اهتماما اذا لم يكن للغرب أسباب قوية جعلته يتحـــرك استجابة لدعـوة الامبراطوريـــة البيزنطيـــة (٤) ٠

ومهما يكن من أمر ، فانه ما كادت تنقضى اثنى عشرة سنة على وصول الحملة الصليبية الأولى الى أرض الشام ، حتى كان الصليبيون قد اقامـوا لأنفسهم ثلاث امارات كبرى ، الرها وانطاكية وطرابلس ، فضلا عن وضـــع نواة مملكة بيت المقدس الصليبية ، وأدى هذا النجاح الى تدفق الجمـــوع الصليبية من الغرب الأوربى على بلاد الشام ، بحيث لايكاد يمر عام دون وصول جماعة صليبية ـ كبيرة أو صغيرة ـ بعضهم اتى فى صورة حجاج ، ولكن يمتشقون الحسام ، ويعتقدون انهم بمحاربة المسلمين وقتلهم ، انمـا يكتسبون ثوابا مضاعفا ٠

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٦ ٠

(٢) Ziadeh : Urban Life in Syria, P. 76.

محمد كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢٧٥ ٠

(٣) Ziadeh : op. cit. PP. 76—77

محمد كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢٦١ ٠

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧ ٠

وهكذا ترتب على الحركة الصليبية خلق وضع حضارى جديد فى بلاد الشام وخاصة فى الجانب الاجتماعى ، بسبب كثرة الاجناس والأصول وما صحب ذلك من تعدد اللغات ، وتداخل العادات والتقاليد ، والتقاء التيارات الحضارية الوافدة من الغرب المسيحى بما هو سائد فى بلاد الشام الاسلامية .

وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أقوم بدراسة الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، وهى الفترة التى تمثل مرحلة الازدهار والنضج بالنسبة للحركة الصليبية ، فقسمت البحث الى عدد من الفصول ، الفصل الأول المجتمع الاسلامى ، والفصل الثانى المجتمع المسيحى ، والفصل الثالث النشاط الاقتصادى ، والرابع الفنون الحربية ، والخامس النشاط الفكرى والتفاعل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين .

واستعنت فى هذه الدراسة بعدد كبير من المصادر المعاصرة ، فضلا عن المراجع الحديثة . هذا ولا يخفى على باحث التاريخ ـ لاسيما فى فترة العصور الوسطى ـ ان دراسة الموضوعات الحضارية ، تختلف اختلافا واضحا عن دراسة الموضوعات السياسية . فالأخيرة بوصفها كانت موضع اهتمام المؤرخين المعاصرين ، رتبوا أحداثها ترتيبا زمنيا ، وتناولوا سردها بالتفصيل وربما أوجزوا حينا واستطردوا احيانا فى هذا السرد . أما الموضوعات الحضارية ، فلم يعتن بها المؤرخون ، ولم يتناولوها بطريق مباشر ، ومن ثم لايستطيع الباحث الوصول الى هدفه الا بعد التنقيب عنه فى صبر وأناة بالغين ، خاصة اذا كان موضوع البحث يتضمن دراسة شاملة عن النواحى الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والفنية .

وثمة عدد لابأس به من المصادر العربية استفدت منها فائدة كبيرة ، أهمها ما كتبه ابن الأثير ، وأسامة بن منقذ ، وعماد الدين الأصفهانى ، وابن شداد ، وابن القلانسى ، وأبو شامة ، وابن واصل ، والقلقشندى .

فابن الاثير كتب كتابين هما : « الكامل فى التاريخ » وهو الموسوعة التاريخية المعروفة ، وتاريخ « الدولة الاتابكية » الذى قصره ابن الأثير على تاريخ البيت الزنكى . وأهمية هذا المؤرخ أنه ولد عام ٥٥٥ هـ (١١٦٧ م)، وتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) ، أى أنه عاصر جزءا هاما من حوادث الحروب الصليبية ببلاد الشام ، ولهذا جاء صادقا فيما رواه من حوادث . وجدير بالذكر انه ليس هناك من القرائن والادلة ، مايثبت أن ابن الأثير كان متعصبا فى روايته ، أو متحاملا على فريق دون آخر .

أما اسامة بن منقذ ، فقد اعتمدت على كتابه الشهير «الاعتبار» عندما تناولت دراسة النشاط الفكرى والتبادل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين فى الفصل الخامس ، بالاضافة الى بعض المواضع الأخرى · وأهمية هـــذا المصدر ترجع الى أن اسامة بن منقذ تكلم عن الحوادث التى شاهدها بنفسه · فقد ولد اسامة عام ١٠٩٥ م (٤٤٨ هـ) فى شيزر ، شمالى حماه من أعمال الشام وتوفى عام ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) فى دمشق · وقام الصليبيون بالاستيلاء على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م وهو فى الرابعة من عمره ، واستعادها صـــلاح الدين قبل وفاة أسامة بعام · وطوال حياته ، كان أسامة على صلات مستمرة بالفرنجة ، يخاصمهم حينا ، ويصادقهم أحيانا (١) · ولما ملك صلاح الدين دمشق استدعاه وهو شيخ جاوز الثمانين ، وأغرم بشعره ، فقد كان شاعرا أديبا فارسا ، ألف كثيرا من الكتب الادبية والتاريخيـــة ، أهمها : كتاب « الاعتبار » وله بالغ الاهمية بين المؤلفات العربية ، لأن مصنفه كتب فيه مذكرات صور فيها تصويرا حيا العصر الذى عاش فيه ، فى حالتى الســـلم والحرب (٢) ·

ومن المصادر التى اعتمدت عليها كتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسى» للعماد الأصفهانى المتوفى عام ١٢٠١ م (٥٩٧ هـ) · والواقع ان العماد بعد وفاة نور الدين محمود فى ١٥ مايو سنة ١١٧٤ م (١١ شوال سنة ٥٦٩ هـ) اتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبى اتصالا وثيقا ، وقربه اليه ، ورفع من شانه ولم يزل كذلك الى أن توفى صلاح الدين · وقد حرص العماد على تسجيل الوقائع الصلاحية فى نثره المسجوع ، والمراسل الحربى اليوم الـــذى يغذى صحف العالم كلها ووكلات الأنباء بالأخبار الحربية ، أشبه مايكون بالعمـــاد الأصفهانى فى تتبعه لخبار صلاح الدين فى ميادين القتال والاسرى والقتلى والجرحى (٣) ·

وثمة مصدر هام تحدث عن صلاح الدين الأيوبى وحياته وعصره ؛ وهو « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، ألفه القاضى بهاء الدين بن شداد، الذى ولد بالموصل عام ١١٤٥ م (٥٣٩ هـ) ، واتصل بخدمة صلاح الدين عام ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) ، وولاه قضاء العسكر ، وقربه اليه ، وأغدق عليـــه

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « أسامة بن منقذ » ·

(٢) أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١

(٣) نظير سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، ص ٦٤ ·

حبه ، وشهد معه معارك عدة حدثت بينه وبين الصليبيين ، وتوفى بحلب عام ١٢٣٩ م (٦٣٢ هـ) ٠ وترجمته لصلاح الدين امتازت بالأسلوب السهل الدقيق ، ومنذ عام ١١٨٨ م يعتبر ابن شداد حجة فيما كتبه عن صلاح الدين الأيوبى ، شأنه فى ذلك شأن عماد الدين الأصفهانى ٠

أما ابن القلانسى ، فيعتبر كتابه « ذيل تاريخ دمشق » من المراجع الأصلية فى تاريخ الشرق الأدنى منذ بداية القرن السادس الهجرى ، وقد انتهى فيه الى عام ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ) ، متخذا مدينة دمشق محورا للحوادث، وقد القى ابن القلانسى ضوءا على كثير من الحقائق الهامة فى بداية عهد الصليبيين ببلاد الشام ٠

أما أبو شامة ، فهو عبد الرحمن بن اسماعيل ، ولد عام ١٢٠٣ م (٥٩٩ هـ) بدمشق ، ومن مؤلفاته فى التاريخ : « كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين » ، الذى أرخ فيه لبطلين من ابطال الحروب الصليبية ، وهما نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، وسار فيه على طريقة السنين (١) وتألف كتابه الى حد كبير من الاقتباسات المستمدة من ابن القلانسى ، وبهاء الدين بن شداد ، وابن أبى طى ، والقاضى الفاضل ، والعماد الأصفهانى ٠

وهناك مرجع آخر يعتبر من أهم المراجع وهو كتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » لمؤلفه جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، الذى ولد مع مولد القرن السابع الهجرى ، وتوفى قبيل نهايته (٦٠٤ ـ ٦٩٧ هـ = ١٢٠٨ م ـ ٩٨ م) وطنه الأصلى حماه ، ولكنه طوف فى بلدان الشرق الادنى الكبرى ، واقام فىالقاهرة سنوات طويلة فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وشهد خلال مقامه فى مصر حملة لويس التاسع ، واحتضار الدولة الأيوبية ، وقيام دولة المماليك ، وما عاصر ذلك من غزوات التتار للعراق والشام وسقوط بغداد ، وانتهاء الخلافة العباسية ، ثم انتقالها الى القاهرة؛ ثم اتصل بالسلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م) ، وأرسل سفيرا عنه الى منفرد بن فردريك الثانى ملك الصقليتين وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة (٢) ٠

---

(١) أحمد بدوى : الحياة العقلية ، ص ٢٧٥ ـ ص ٢٧٧ ٠

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب ، ج ١ ، ص ٤ ٠

على أنه لايمكن التحدث عن مصادر البحث دون ذكر أسم القلقشندى ، المتوفى سنة ١٤١٨ م (٨٢١ هـ) · فلا ريب ان كتابه « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ،يعتبر أكبر موسوعة ضمت بين دفتيها الكثير من النظم الحضارية التى تهم باحث التاريخ فى العصور الوسطى · وقد أفادنا هذا الكتاب فى بحث موضوع القبائل العربية ، والطوائف الدينية الاسـلامية ببلاد الشـام ·

هذا فضلا عن عدد آخر من المراجع العربية الحديثة التى ذكرناها فى قائمة المصادر والمراجع فى نهاية الكتاب ·

أما عن المصادر والمراجع الأجنبية التى اعتمدت عليها فهى كثيرة ، من بينها كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ·

Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum.

وهو لمؤلف مجهول ، تناول احداث الحملة الصليبية الأولى حتى سقوط بيت المقدس فى ايدى الصليبيين عام ١٠٩٩ م ·

أما وليم الصورى صاحب كتاب

William of Tyre : A history of Deeds done beyond the sea.

فهو المع المؤرخين الصليبيين قاطبة ، ولد فى بيت المقدس قبيل عام ١١٣٠ م وتعلم العربية واليونانية ، واتصل عام ١١٦٢ م بالملك عمورى الأول ، ثم تعين عام ١١٦٧ م كبيرا لشمامسة صور ؛ والمتتبع لكتابات وليم التاريخية يجد أنه امتلك أعظم صفتين لكتابة التاريخ فى عصره : المعرفة الشخصية بأصحاب الحوادث بحكم منصبه الرسمى العالى ، وايمانه الشديد بالحقيقة، وبوصفه كان دبلوماسيا ، واسقفا ، ومؤدبا ملكيا ، ورئيسا لديوان انشاء مملكة بيت المقدس ·

ومن المصادر التى أفدت منها مجموعة مؤرخى الحروب الصليبيـة

Receuil des Historiens des Croisades (Historiens Occidentaux)

ومن المصادر التى اعانتنى فى كتابة هذا الكتاب ، كتاب « رحلة ماركوبولو » Marco Polo : Travels وماركوبولو أول الاوروبيين الذين توغلوا فى الصين ، ولمؤلفه الذى قص فيه اخبار رحلته التى استغرقت أربعة وعشرين عاما (١٢٧١ ـ ١٢٩٥ م) عبر آسيا كلها · وكانت له عناية بما يشـاهد وروح قوية للملاحظة ، لايفوتها تفصيل ما · وقد أفدت من كتاب ماركوبولو

عند الحديث عن طائفة الاسماعيلية ، التى لعبت دورا رئيسيا فى احداث الشام ابان الحروب الصليبية ٠

ومن بين الكتب التى اعتمدت عليها عند الحديث عن النشاط الاقتصادى ببلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كتاب :

Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen age. 2 Vols.

وهو يقـــع فى جزءين ، ويعالج تاريخ التجارة فى العصور الوسطى ، وتعرض للتاريخ التجارى لبلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ٠ ويعتبـــر هذا الكتاب مرجعا كبيرا ، يمتاز بحسن عرضه ، ولا غنى عنه لباحث يتناول دراسة النشاط الاقتصادى فى العصور الوسطى ٠

ومن الكتب الأجنبية التى استفدت منها :

King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, Camb 1932.

وقد تناول هذا الكتاب نشأة طائفة الاسبتارية ونظمها والدور الذى لعبته فى تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية ، هذا بالاضافة الى أنه تناول احـــداث الطائفة الشهيرة الأخرى ، وهى الداوية ، التى كانت المنافسة الخطيـــرة للاسبتارية ٠

وثمة مراجع أخرى تناولت كافة احداث الحروب الصليبية ببلاد الشام، فضلا عن الأنظمة الحضارية التى وجدت مواكبة لتلك الحروب ٠ وأخص بالذكر منها :

Chalandon : Histoire de la Première Croisade.

ومن المراجع القيمة التى تناولت النظام الاقطاعى فى مملكـــة بيت المقدس كتاب :

La Monte : Feudal Monarchy in the Latin Kingdom.

وعند دراستى للفنون الحربية فى الفصل الرابع اعتمدت على عـــدة كتب منها :

Oman : A History of the Art of War in the Middle Ages. (2 Vols.)

وثمة كتاب آخر تناول دراسة القلاع الصليبية ببلاد الشام ، أفدت منه ايضا وهو :

Fedden : Crusader Castles.

ومن الكتب التى تناولت النشاط الاقتصادى والاجتماعى فى العصـــور الوسطى كتاب :

Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages. (2 Vols.)

وهو من المراجع التى خدمت البحث ، اذ تناول مؤلفه طومسون فترة الحروب الصليبية ببلاد الشام ٠

وبعد ، فان هذه أهم مصادر ومراجع الكتاب وليست كلها ، وبصرف النظر عما اذا كان هذا الكتاب قد أتيت فيه بالجديد من المادة العلمية ، فانه على قدر طاقتى محاولة متواضعة ٠

ولا يسعنى سوى تقديم خالص شكرى وامتنانى لأستـــاذى الجليل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، لما أمدنى به من توجيه ونصح وارشاد ٠

والله ولى التوفيق ٠ ،،،

القاهرة فى يوليو ١٩٧٩ م

المؤلف